الوسطية بين واقع مؤسف وطموحات تدعو إلى الخلاص

2017-08-30علي عبد الرضا

(1)

إننا نمتلك شريعة متكاملة مبينة لكل شيء (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمؤمنين)(1)، وهذه الشريعة تتسم بالثبات والموز ونية (فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً)(2).

ونمتلك عقولاً تستنبط الأحكام وتوضح المعايير من هذه الشريعة. وطبعاً هذا الفهم والاستنباط يختلف ويتفاوت من شخص لآخر باعتباره نتيجة طبيعية لاختلاف البشر (لا يزالون مختلفين)(3). وتمايزهم في الإدراك والمعرفة والظروف.

فإلى من نوجه اللوم عند حدوث خطأ ما؟

للشريعة.. أم للقيمين عليها من مستنبطين وعاملين؟

كما بيّنا.. الشريعة ثابتة لا تقبل التغيير ولا التبديل ولا التحويل، وليس هناك من أحد يدعي عكس ذلك، (فحلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة) ومن قال غير هذا فالبطلان حليفه والخسران نصيبه.

فأين يكمن الخطأ؟

إنه يكمن في سوء فهم البعض لهذه الشريعة وجهلهم ببعض الحقائق الثابتة، فالبعض ما زالت تتحكم فيه قضايا الخلافات والتجاذبات والنزاعات الشخصية والفئوية، وهذا ما ترك تأثيراته السلبية على عملية استنباط الأحكام ومعرفة الحقائق أو في نمط التطبيق والممارسة.

فنحن بحاجة إلى مراجعة نوعية لذواتنا، لكي نجردها من كل العوامل التي تؤدي إلى سوء الفهم للشريعة والحياة أو تلك التي تتعلق بالسلوك العملي وتجره نحو الانحراف، فالشريعة أمانة، والأمانة تلزمنا المحافظة عليها والدفاع عنها وتبرئتها من قصورنا ونواقصنا.

(2)

قوانين الإسلام وأحكامه وحدة متجانسة مترابطة، تكمل وتفسر بعضها البعض، فلا تقبل التجزئة والتفكيك، وترفض الالتقاط والتبعيض (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)(4).

ويلزم على من يريد الأخذ بها أن يأخذها جميعاً أو أنه يرفضها جميعها، فلا وجود للتبعيض والتجزئة بين قبول الشريعة وعدم قبولها. لأن الأخذ بقسم دون آخر هو عدم فهم كامل لمبادئها وموازينها وبالتالي هو تطرف وانحياز لجانب حسب الاختيار الكيفي لا المنطقي ربما يقابله انحياز لجانب آخر من الطرف الآخر بنفس الدوافع والأسباب وهنا تضيع الوسطية وينعدم الاعتدال ويموت الاستقرار.

والخطأ الذي وقع فيه البعض ممن يحسب نفسه أنه فهم الإسلام بشكله الكامل الشامل ينطلق من هذه النقطة، وكيف أن هذا الصنف من البشر أراد أن يكون مقبولاً عند الكل فيأخذ ويختار على هواه من قيم الدين، ما وافق أهوائه وميوله ومزجها ببعض الآراء الشخصية والقوانين الوضعية فنتج خليطاً غير متجانس لم يرض به الإسلام ولم يحقق طموحات الوجدان. ولعل هذا أول ما أصيب به بنو إسرائيل إذ بدأوا يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعض حسب رغباتهم وأهوائهم..

ويوصم القرآن هذه الفئة بالكفر بعد أن ضلت سبيلها باتخاذها طريقاً ثالثاً فيقول عنها عز وجل: (إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقاً)(5).

(3)

الأحكام الشرعية والتعاليم الإسلامية لها حدود وحواجز لا تقبل النقص ولا ترضى بالزيادة فالإيمان بالحقائق الشرعية والالتزام بها عملاً يجب أن يبقى ضمن حدود الشرع بعيداً عن الأهواء والمصالح التي غالباً ما تتدخل فتبتدع أشياء ما أنزل الله بها من سلطان وتحدث أشياء لا تمت إلى الإسلام بصلة.

فكل نقص في حدود الله هو تفريط وتسهيل.

وكل زيادة في حدوده سبحانه هي إفراط وغلو.

والمنكر لبعض الأحكام أو المزيد عليها مبتدع ضال لأن (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)(6)، والمؤمن الملتزم من يأخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه(7) أو عن رأي الضالين المضلين. فإن دين الله لا يقاس بالعقول كما ورد عن مولانا الصادق(عليه السلام).

(4)

للإسلام مصادر معتبرة ومعتمدة...

وإذا أردنا أن نأخذ الحقائق الشرعية فعلينا أن نأخذها من مصادرها الأصلية التي أودعها رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الأمة وذلك عندما قال في أحد خطبه: (... ألا وإني قد تركتهما فيكم: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لا تسبقوهم فتفرقوا، ولا تقصوا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم)(8). فالالتزام بالقرآن ونهج أهل البيت (عل) ونهج من التزم بطريقهم(عل) هو الذي يرشدنا نحو جادة الوسط الذي فيها خير الدنيا والآخرة.

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في إحدى خطبه: (.. إلينا يرجع الغالي، وبنا يلحق المقصر.. من تمسك بنا لحق ومن سلك غير طريقنا غرق.. طريقنا القصد وفي أمرنا الرشد)(9).

والدعاء المروي عن الإمام السجاد(عليه السلام) والذي يقرأ يومياً في شهر شعبان يشير إلى هذه

الحقيقة التي تغافل عنها البعض فيقول(عليه السلام): (.. اللهم صل على محمد وآل محمد الفلك الجارية في اللجج الغامرة يأمن من ركبا ويغرق من تركها، المتقدم لهم مارق والمتأخر عنهم زاهق واللازم لهم لاحق)(10).

وحتى الأمة الوسط التي امتدحها الحق تعالى في كتابه العزيز لا تحيد عنهم ولا تميل إلى غيرهم (عل) (فعن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر(عليه السلام) يقول نحن نمط الحجاز، فقلت وما نمط الحجاز؟ قال: أوسط الأنماط، إن الله يقول: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) نحن الأمة الوسط وإيانا عني ثم قال: إلينا يرجع الغالي وبنا يحلق المقصر)(11).

(5)

لعل من الظواهر التي تطبعت بها المرحلة الحاضرة عند البعض ـ نتيجة لظروف لسنا بصدد بحثها الآن ـ ظاهرة عبادة الفرد والارتباط بالشخص وجعله محوراً لمختلف الدراسات وعنوانا للإلتزام ومحكاً لإخلاص الأفراد وولائهم. فانعدمت كل المعايير الأخرى ومنها التقوى والإيمان ليكون الذوبان في الفرد هو الفكرة والشعار والسلوك، فافترقت الأمة وتطرفت في الولاء لهذا والتعصب لذاك حتى اشتد التسابق بين المتطرفين ليرتفع في بعض مراحله إلى درجة التقديس والعبادة لكون هذا معصوماً! وذاك إلهاً يعبد من دون الأرباب!. حتى أصبحت جميع أنفاسهم وأفعالهم وأفكارهم الخاصة قوانين واجبة الإطاعة ومفروضة الالتزام. فهذا التعصب مرفوض بكل المقاييس لأنه الباب الواسع الذي يدخل فيه التطرف إلى النفوس ولا يتركها إلا بعد أن تتحول جثة هامدة مقطعة الأوصال.

وكما أن التعصب للفرد مرفوض كذلك التعصب للفكرة أيضاً مرفوض؛ لأنا لا نريد ومنذ البداية أن نحكم على أفكارنا بالصحة والإيجابية وعلى أفكار الآخرين بالسقم والسلبية، وإنما علينا طرح بضاعتنا مع أدلتها على الآخر ونترك الحكم قبولاً أو رفضاً للدليل والمنطق، وفي القرآن الكريم ما يشير إلى هذه الجهة حيث يقول: (وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)(12). حتى إذا انكشفت الحقائق وبانت الحقيقة كما أرادها(صلى الله عليه وآله) كان تأثير ذلك على نفسية الآخر عظيماً.

فالتعصب للفكرة يذبحها في المهد، بينما الاعتدال في عرضها والموزونية في طرحها يبقيها محتملة الصواب أمام أعين أشد المعاندين، وليس هناك من شك بأن الأخذ بها ـ لما فيها من منطقية وبرهان ـ حتى من قبل الأعداء شيء واقع لا محالة قرب الزمن أو بعد.

(6)

بما أن الاختلاف بين بني البشر أصل ثابت ومميز منذ الأزل، فليس هناك سبيلاً لجمع المختلفين والتقاء المتباينين (غير الوسطية)، ويتأكد الإصرار على سلوك هذا الإتجاه كلما كان التفاوت بين المتناقضين شاسعاً وشاملاً.

فالأمة فيها المتقدم والمتأخر.. المتعلم والجاهل.. المتهور والجبان.. القوي والضعيف.. المفكر والعامل.. وفيها.. وفيها، وهؤلاء إن أُريد جمعهم في وحدة متماسكة ودائمة فلا خيار إلا بتطبيق قاعدة (الرضاء الناقص) أو بتعبير آخر التنازل عن البعض لحساب الكل والتلاقي عند نقطة محورية تجمع المتقدم شمالاً والمتأخر جنوباً، والذاهب يميناً والسائر يساراً، وهذه النقطة نستطيع أن نسميها الوسط الذي يرضاه الجميع وتنصهر فيه الاختلافات والتناقضات.

ومن العيب أن نبقى متوقفين عند هذه المرحلة الأولية والطريق إلى الوحدة الكبرى ما زال طويلاً أمامنا وعقباته كبيرة جداً، وخصوصاً إننا نواجه عوالم عديدة قد سبقتنا إلى هذا الشيء وشكلت تكتلات عملاقة قد لا ترحم من يقف أمامها منفرداً وإن امتلك كل مستلزمات القوة.

(7)

مما يؤسف له أننا الأمة الوحيدة التي تتقاذفها أمواج الفتن ذات الشمال وذات اليمين بسبب منها أو من غيرها، فبعضها التحق مهرولاً بركب الثقافة الأوربية والتزمها اعتقاداً منه أنه سيصل إلى المدنية التي يتمتع بها الغرب. وبعضها الآخر انصدم من سيطرة المادة فترك كل شيء والتجأ إلى الكهوف والمغارات ليعبد الله عن قرب ظناً منه أن هذه الطقوس وحدها المقبولة وغير ذلك هو الخسران المبين.

فلا الأول نال مرادهِ لانه فقد إنسانيته وتردى إلى أدنى الدركات السفلى ليشابه الحيوان أحياناً في سلوكه وتصرفاته، ولا الثاني حقق غايته لأن الله يعطي للعاملين المخلصين اضعاف ما يعطي للعابدين، فانفصمت عرى الأمة بين مطالب بالماديات وآخر ملتزم بالتجرد التام عنها، فضاع النمط الأوسط وغابت الموزونية من فكر وسلوك عموم الأمة الذي أرادهِ الإسلام والمنطق السليم حيث يقول سبحانه (وابتغ فيما أتاك الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا).

وليت الحال يتوقف عند هذه الحالة والمرحلة وإنما يتبع ذلك توالي مبادئ هدّامة ونظريات منحرفة ومذاهب مختلقة على جسد الأمة لتقتطع منها كل يوم أعداد هائلة من البسطاء والفقراء وتقذف بهم في مهاوي التطرف والضياع.

(8)

ربما هناك من يتصور الوسطية أو يفهمها وفي بعض الأحيان يعتقد بأولويتها، ولكن هل هذا يكفي لأن يكون الإنسان وسطياً؟، الوسطية تحتاج إلى إيمان عميق واعتقاد راسخ بالنظرية مضافاً إليه تطبيق عملي يتلبس بكامل السلوك الإنساني، لأن الإيمان يتبعه العمل ويلازمه ولا ينفك عنه، أما الفهم والتصور فهو مرحلة أولية من المعرفة البسيطة التي قد لا يلزمها العمل.

والوسطية التي ندعو لها ونصرّ على الأخذ بها في جميع مناحي الحياة تلك التي تنطلق من عميق الوجدان وترسم لنا صوراً نموذجية حية عن مختلف تعاليم الإسلام وأحكامه، أما الكلمات المنمقة التي تخرج من أفواه البعض وليس لها أصل إيماني ولا يدعمها مظهر خارجي ولا يؤيدها سلوك يومي لا تفيدنا بشيء وربما تكون وبالاً على صاحبها وعلى الإسلام باعتباره فرد منه.

والمسلم مدعو قبل غيره لأن يكون أنموذجاً واقعياً في الممارسة الوسطية فيدعو لها بأعماله لا بلسانه، فقد جاء عن الإمام الصادق(عليه السلام): (كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم)(13).

وعنه(عليه السلام): (كونوا دعاة الناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاة بألسنتكم)(14).

وتتأكد الممارسة العملية للوسطية على أولئك الذين يدعون الناس إلى الإيمان والتمسك بتعاليمه، فهؤلاء قبل غيرهم مدعوون إلى الالتزام العملي والتأني والحذر في كل خطوة يخطونها فهم مراقبون من قبل الله ورسوله والمؤمنون من أفراد المجتمع الإسلامي، يرون كل فعل يقوم به ويطابقونه مع ما في الإسلام من معايير وقيم.

ومن هذا المنطلق فإن مهمة العالم والمبلغ والخطيب مهمة شاقة وعسيرة، فهو مطالب قبل غيره لأن يكون قدوة في العمل وأنموذجاً رائداً في السلوك وإلا فهو ليس بعالم، فقد سئل الإمام الصادق(عليه السلام) عن العالم فقال: (العالم من صدق قوله فعله، ومن لم يصدق قوله فعله فليس بعالم)(15).

وعن أمير المؤمنين(عليه السلام) أنه قال: (العالم من شهد بصحة أقواله أفعاله)(16).

(9)

الوسطية أساس التوافق الاجتماعي وبناء العلاقات الإنسانية، بل إن النجاح والفشل في الحياة متوقف إلى حد كبير على هذا النمط من السلوك، وكل العلائق الاجتماعية والإنسانية إن أريد لها البقاء والديمومة يجب أن لا تحيد عن الموزونية والاعتدال في الخطاب والممارسة.

والذي يؤسف له أن علاقة البعض مع الآخر ـ المسلم وغير المسلم ـ يلفها الغموض وعدم المصداقية فخطابه يدعو إلى الانفتاح على الآخر والإصغاء إليه ودراسة أفكاره، في حين أن الواقع يكشف أنه يدخل ساحات العمل وعينه مغمضة عن رؤية الآخرين وعقله متوقف عند حد معين من الأفكار والآراء الخاصة متشبث بأدلة وحجج لا تحظى بالدعم ولا يرضاها المنطق السليم والعقل السوي.

أليس الطريق أمامنا ما زال طويلاً؟!

(10)

الخطأ لا يصحح بخطأ مثله، والتطرف لا يداوى بتطرف آخر، فمن تجاوز الحد المعقول وتصرف تصرف المندفعين، فلا مسلك لإرجاعه (للوسط) العام إلا بفتح أبواب المناظرة العلمية الهادئة الهادفة أمامه، ليكشف عن مخزونه العلمي ويوضح آرائه بحرية تامة، فيحق لنا بعده مناقشة ما طرح بروح موضوعية رياضية (بالتي هي أحسن) لا بالتي هي أخشن، وهذه الروح كفيلة بإرجاع المياه إلى مجاريها الطبيعية.

أما أن نعلن الحرب ضد كل من تطرف ومال ونكرس القدرات بوجه كل من أفرط وأخطأ، فنكون قد وقعنا بالذين وقع فيه، وزدنا الطين بلة، وعملنا على إيجاد شرخ عظيم في الأمة قد لا يلتئم بسهولة وربما يجرها إلى صراع داخلي غير محمود العواقب. والساحة الإسلامية حبلى بشواهد لما نقول، فالذي دعا للمصالحة مع الأنظمة والدول بدون أية تحفظات قوبل بعنف لا رحمة فيه ولا رأفة، ومن أخطأ في رأي عن شبهة أو غيرها أتته سهام التكفير من كل حدب وصوب، وكأن كل الطرق غير معبدة إلا طريق الرد بالمثل. وهل الرد بالمثل إلا التطرف بعينه وإبعاد أي احتمال لعودة من أخطأ واشتبه إلى جادة (الوسط)؟، أليس الحوار العلمي البناء المثمر، والدليل القوي والمقنع وحدهما يكفلان بإرجاع الأمور إلى نصابها (الوسط)؟

(11)

الأصل في المسائل الاعتقادية التحقيق والتنقيب والبحث عن الأدلة والبراهين المعتبرة قبل الحكم على الشيء بينما الأصل في السلوك الإنساني الاتباع لتعاليم السماء والسير على خطى سيد الأنبياء(صلى الله عليه وآله) وخلفائه الأتقياء(عل).

فالسماء ما برحت تخاطبنا لنسلك ما أمرت به فتقول:

(هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)(17).

(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس)(18).

(فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى)(19).

(ومن اعرض عن ذكري فإنه له معيشة ضنكاً)(20).

أما النبي(صلى الله عليه وآله) الأسوة (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)(21)، وصاحب الخلق العظيم (وإنك لعلى خلق عظيم)(22)، فكانت (سيرته القصد)(23) كما يصفه أمير المؤمنين(عليه السلام): (فقد روي عن أبي عبد الله(عليه السلام) أنه قال: إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه، فأرسلت إليه امرأة ابناً لها فقالت: انطلق إليه فاسأله، فإن قال لك ليس عندنا شيء فقل أعطني قميصك، قال: فأخذ قميصه فرمى به إليه، فأدبه الله عز وجل على القصد فقال: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً)(24))(25).

أما أهل بيته(عل) فهم الامتداد الطبيعي لرسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) وخير من سار على نهجه والتزم بتعاليمه ولم يحيد عنها رغم مختلف الظروف وأشد المحن، وهم المطهرون الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا،وهم المعنيون بالآية الشريفة (كذلك جعلناكم أمة وسطاً)ن (فعن بريد العجلي قال: سألت أبا جعفر(عليه السلام) عن قول الله تبارك وتعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) قال: نحن أمة الوسط ونحن شهداء على خلقه وحججه في أرضه)(26).

(12)

الهروب الكبير للقدرات والكوادر والعقول من أسوار البلاد الإسلامية والذي يتكرر يومياً هو بلا شك ردة فعل طبيعية لما يحدث ويجري في هذه البلدان من تطرف وعدم استقرار. فالوطن الإسلامي بعد أن كان ملجأ كل هارب ومظلوم من تخرصات الكنيسة وبطش الاستبداد الغربي لفترة طويلة من الزمان أصبح اليوم وبفضل حكوماتنا الدكتاتورية! وكراً للبطش والتآمر والتبعية، وكل من امتلك قدرة الهروب عجل وترك البلاد ليسلم بنفسه، فتحولت بلادنا من دار للسلام إلى مخابئ للسجون والمعتقلات، فيما تحولت بلاد الشرك والكفر إلى أنظمة ديمقراطية ولو نسبياً تأخذ بيد

المضطهدين وتدافع عن المظلومين، ولا عجب أن يصل رقم اللاجئين في العالم إلى 87 مليون شخص غالبيتهم العظمى من المسلمين!!

ولو سألنا لماذا؟؟.

لكان الجواب ولا غير: إننا ـ وفي هذا المقطع بالتحديد تتحمل الحكومات غالبية وزر ما يحدث ـ ابتعدنا عن (وسطيتنا) الرشيدة في مواقفنا تجاه الأصدقاء والخصوم من الموالين والمخالفين، والتزمنا المناهج الوضعية التي لم تراع الفطرة الإنسانية ولم تحترم الشريعة المحمدية المتوازنة. وهذا منزلق سحيق لا يمكن الخلاص منه إلا ببذل جهود إضافية كبيرة وتلاحم وتنسيق..

(13)

لاشك ولا ريب بأن عدونا ـ نحن المسلمون ـ لا يريد لنا خيراً ويعمل جاهداً للسيطرة علينا أو تحطيمنا بكل ما أوتي من قوة، ولكن هل هذا يعني أن نوجه اللوم كل اللوم لهذا العدو أو ذاك ونبرأ ساحتنا عما يحدث ويدور؟ قد تكون (نظرية المؤامرة) واردة في بعض فصولها وتلزمنا قدراً خاصاً من العناية لمواجهتها، فهي بعض السبب وليست علة تامة، وحتى هذا البعض يرجع سببه الينا نتيجة لسيطرة الجهل والتطرف والخرافات على الكثير منا، وإلا لماذا لم تنجح مؤامرات الأعداء على دول أخرى ، ماذا يفرقها عنا حتى نكون نحن محوراً للصراعات الدولية والحروب العالمية؟.

إن ما يحدث فينا مرجعه إلينا وهو نتيجة طبيعية لغياب الوعي وتراكم الجهل في الأمة وموت حالة الاعتدال والموزونية في كل مفاصلنا. ومنشأ جميع المشاكل الذات الفردية التي يقوم عليها بناء كل شيء أو تحطيم كل شيء، فالانحراف يبدأ من الذات ومن نقطة صغيرة قد لا تثير الاهتمام لنفس الفرد أو من يدور حوله فتكبر وتكبر وليس هناك من رادع ذاتي أو اجتماعي لينتهي بمرض عضال لا يمكن علاجه بسهولة.

وبقدر أهمية الفرد ومنزلته يكون الانحراف والتطرف، فزلة الفرد العادي غير زلة العالم، (زلة العالم كإنكسار السفينة تغرق ويغرق معها غيرها)(27) ، وربما (زلة العالم تفسد العالم)(28).

لأجل ذلك انطلقت التأكيدات لتتوجه نحو إصلاح الذات وتربيتها وجعلها أصل الخير والبناء الذي يقوم عليه المجتمع السليم (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)(29)، والتأكيد الآخر الذي أولته الشريعة كامل عنايتها وخصصت له مساحة كبيرة من الاهتمام هو مسألة (العالم) والدور الموكل إليه في تربية المجتمع وحفظ التوازن.

فالعالم هو الرمز الذي يشار إليه بالبنان، والمعين الذي تأوي إليه الضمائر العطشى وتطلبه القلوب الحرى، فلا بد أن يكون خير من يقتدى به فكراً وعملاً ولا خير في معين لا يزيل الأوهام ويثبت الإعلام، أو يرفع التخاصم ويبيد القواصم، ويعطي التوجيهات وينصب الإمارات، ويحدد للأمة وبوضوح وبدون أي لبس الواجبات المفروضة عليها والمناطة إليها لتكون على علم ودراية بكل ما يحدث ويجري، حذرة مستنفرة، إن رأت خطأ أصلحته وإن شاهدت زيغاً أرجعته.

نعم هذه هي الممارسة الواقعية للذات البناءة التي لا تعرف سدوداً ولا تتقيد بحدود فالأمة هدفها وغايتها تحب ما يسعدها ويجعلها على إجادة الصواب وتكرس روحها وفكرها ووجودها لأجل إيصالها إلى الآمال والطموحات.

فتغير الذات= ممارسة الذات بواقعية + التفاعل مع الآخرين بإيجابية.

(14)

إذا كانت موزونية الكون قائمة على قواعد راسية وأسس راسخة ومعادلات ثابتة لا يمكن أن تحيد يوماً من الأيام عن مسارها وعن الطريق المرسوم لها، فلماذا نشاهد بين فترة وأخرى حدوث زلازل مدمرة وفيضانات مخربة، أليست هذه الأمور دليلاً على لا موزونية الكون؟ وماذا نفسر ارتفاع درجات الحرارة في السنوات الأخيرة، وتوسع ثقب الأوزون؟

إن الله سبحانه سخر كل ما في الكون لخدمة الإنسان باعتباره خليفته في أرضه والمطبق لقوانينه وأحكامه، فإذا لم ينهض هذا (الخليفة) بالواجب ولم يراع الأمانة المخولة إليه بالصورة المطلوبة، أو تركها جانباً وطرق سبلاً أخرى، أليس من حق الباري تعالى خلخلة بعض الموازين الكونية بعد أن

أخل الإنسان بموازينه وموازين مجتمعه؟

فالبداية انطلقت من الإنسان (فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم)(30) فجاء الرد من العزيز القدير بتغيير بسيط في موازين الكون ليذكر هذا الخليفة بتعهداته والتزاماته لعله يفيق من غفلته وعصيانه ويعود للطريق القويم (الوسط)الذي يرتبط بعلاقة وثيقة مع موزونية الكون.

والسنن الإلهية ثابتة لا تتغير ومنها: إن الذي يعرض عن تعاليمه وبياناته ستهجم عليه المضلات وتتقاذفه المهلكات من كل جانب وتتحول حياته إلى جحيم لا يطاق ففي الدنيا تعالى: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً)(31)، وفي الآخرة سيدخله صقر: (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذباً صعداً)(32)، وهذه نتيجة منطقية، فإن الله (لم يك مغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا أنفسهم)(33).

أما لو حفظ الإنسان الأمانة وحافظ على التوازن (الوسط) لناله الخير وشملته الرحمة الإلهية (ولو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا)(34).

وفي آية أخرى يقول سبحانه: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض)(35).

ومن المؤكد عندنا ـ نحن الإمامية ـ أن الأرض ستعطي بركتها والسماء ستنزل خيراتها وذلك عند ظهور صاحب العصر والزمان الحجة المنتظر(عج) الذي «يسير فيهم (الناس) بسيرة رسول الله(صلى الله عليه وآله) ويعمل فيهم بعمله»(36)، يقول الإمام الصادق(عليه السلام): إذا قام القائم حكم بالعدل، وارتفع في أيامه الجور، وآمنت به السبل وأخرجت الأرض بركاتها، ورد كل حق إلى أهله، ولم يبق أهل دين حتى يظهروا الإسلام ويعترفوا بالإيمان، أما سمعت الله يقول (وله اسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) وحكم بين الناس بحكم داود(عليه السلام) وحكم محمد(صلى الله عليه وآله) فحينئذٍ تظهر الأرض كنوزها، ولا يجد الرجل منكم موضعاً لصدقته، ولا لبرّه لشمول الغنى جمع المؤمنين) (37).

(15)

الأمة الإسلامية.. هي قدوة الأمم والشاهدة عليها..

ولكن.. في أي شيء قدوتها لتكون شاهدة على الآخرين؟

هل في العنصر.. أو القوة.. أو العلم.. أو في شيء آخر لا نعرفه؟

إنها قدوة في وسطيتها بين تلك الأمم، وسطيتها في كل شيء في المكان والزمان.. في الفكر والسلوك.. وفي العبادة والعمل.. وفي كل قيمها المادية والمعنوية، لهذا يحق لها ولمن يقف وسطاً بين الاتجاهات المختلفة ومعتدلاً بين الأقوام المتطرفة أن يكون شاهداً منفرداً على بقية الأمم.

فهل ما نحن فيه يشير إلى هذه الحقيقة؟.

والأمة التي يلفها التطرف وطلقت الوسطية ثلاثاً في أغلب مناحيها هل تبقى قدوة للآخرين؟ وهل يحق لها أن تكون شاهداً عليهم؟.

فمن هو الشاهد حالياً؟

هذه أسئلة وأخرى كثيرة نترك أجوبتها لوقت آخر...

* مقال نشر في مجلة النبأ العدد 38 –رجب 1420-

.....

المصادر

1 ـ النحل: 89.

2 ـ فاطر: 43.

3 ـ هود: 118.

4 ـ البقرة: 85.

5 ـ النساء: 150 151.

6 ـ الكافي: ج1 ص57.

7 ـ وسائل الشيعة: ج18 ص27.

8 ـ كلمة الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله): 57.

9 ـ بحار الأنوار: ج10 ص105.

10 ـ مفاتيح الجنان: ص156.

11 ـ تفسير البرهان: ج2 ص160.

12 ـ سبأ: 24.

13 ـ بحار الأنوار: ج70 ص299.

14 ـ بحار الأنوار: ج5 ص198.

15 ـ المحجة البيضاء: ج1 ص135.

16 ـ الحكم الزاهرة: ص30.

17 ـ الأنعام: 153.

18 ـ البقرة: 143.

19 ـ طه: 123.

20 ـ طه: 124.

21 ـ الأحزاب: 21.

22 ـ القلم: 4.

23 ـ بحار الأنوار: ج16 ص379.

24 ـ الإسراء: 29.

25 ـ فرع الكافي: ج1 ص178.

26 ـ تفسير البرهان: ج2 ص160.

27 ـ بحار الأنوار: ج2 ص58.

28 ـ غرر الحكم: 426.

29 ـ الرعد: 11.

30 ـ الصف: 5.

31 ـ طه: 124.

32 ـ الجن: 17.

33 ـ الأنفال: 53.

34 ـ الجن: 16.

35 ـ الأعراف: 96.

36 ـ سفينة البحار: ج2 ص705.

37 ـ أعيان الشيعة: ج4 ق3 ص531.1 ـ